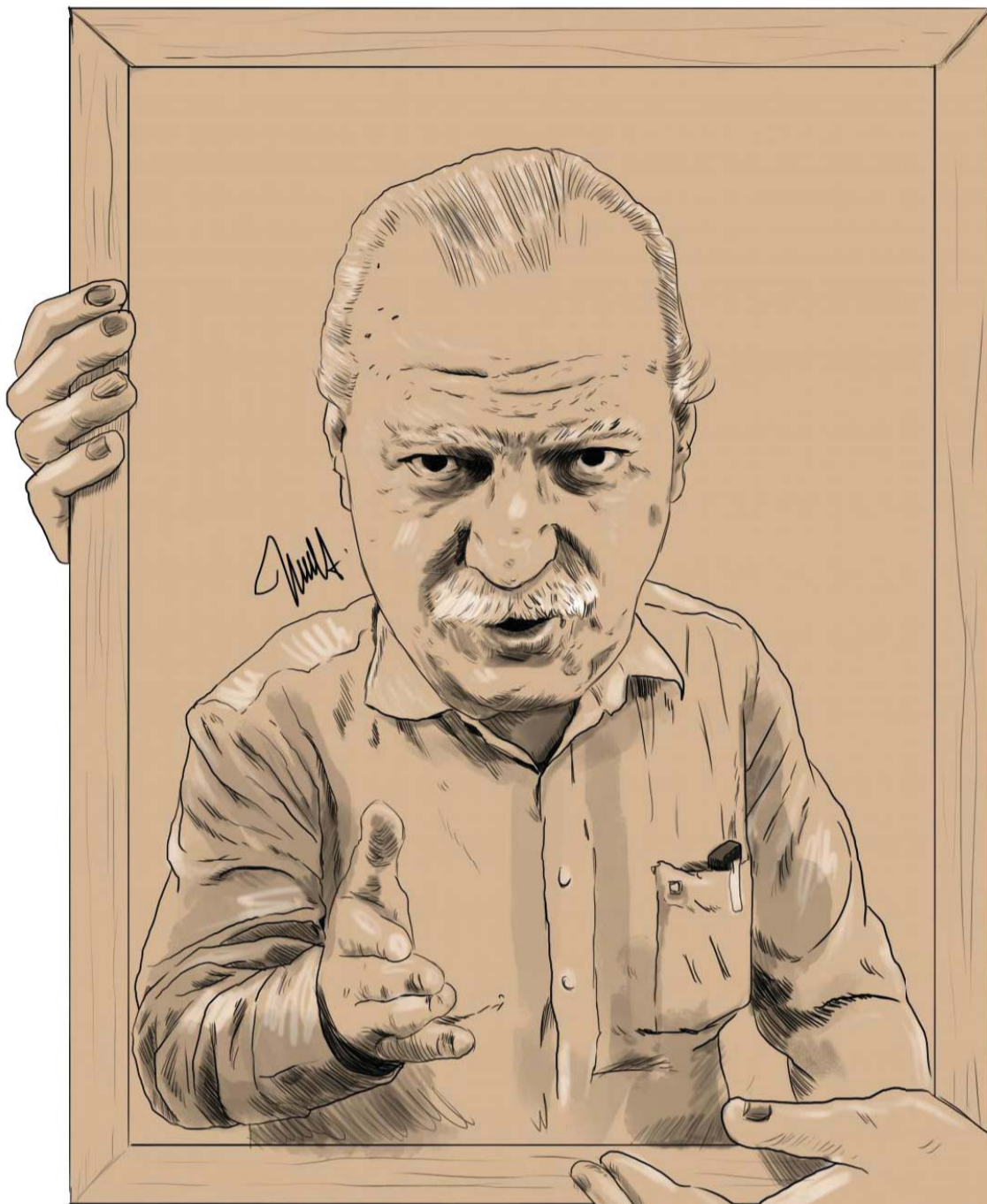


السوري الماشي على الحافات

يوسف عبدلكي

رسام الواقع الذي ينتجه الوهم



كان عليه أن يدرب نفسه طويلا لكي يخلص إلى نزعة وصفية، كانت كامنة في أعماق نفسه. عليك أن ترى العالم جميلا لكي تكون منصفًا في وصف جماله. كيف يمكن اقتناص تلك الرؤية في ظلمات السجن؟ تلك فكرة كابوسية غير أنها يمكن أن تكون واقعية بضرورة. يمكن ليوسف عبدلكي أن يقول لك "المرح هو الجزء الذي يبقى من الحقيقة". هي مقولة أقام عليها معادلة حياته التي التهمت السياسة الجزء الأكبر منها. السياسة بالنسبة له هي فن العيش على الحافات.

الرسم قبل كل شيء آخر

منزل صديق بالبحرين. لو أنني رويت تلك الحادثة لعبدلكي لاعتبرها مزحة يمكن البناء عليها بما يهيئنا لتأليف رواية.

السياسي الذي يقف في الطريق

ولد عبدلكي في القاهشلي عام 1951. تخرج من كلية الفنون الجميلة بدمشق عام 1976. نال شهادة الدكتوراه من جامعة باريس الثامنة عام 1989. قبلها درس الحفر وحصل على الدبلوم من المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة بباريس.

عام 1973 أقام أول معارضه الشخصية في دمشق. وعاد في العام 2005 إلى وطنه سوريا وأقام له مرسما في قلب دمشق القديمة، بعد غياب حوالي ربع قرن قضاه بباريس. ما الذي كان يفعله عبدلكي في باريس غير أن يدرس؟

تتميز سيرة عبدلكي بصفتين منحتاه الشهرة التي هو عليها اليوم، ليس الرسم الزيتي وهو ما يبقى يذكر بموهبته العالية من بينها. كان عبدلكي رسام كاركاتير ومصمم أغلفة كتب وملصقات بحكم خبرته الجرافيقية. هذا من جهة ومن جهة أخرى، كان ناشطا سياسيا معارضا نجح في رسم لوحات تمثل الحياة في الأقبية السورية التي أقامتها الأجهزة القمعية لتعذيب المعتقلين السياسيين. وبسبب الطاقة الرمزية والإيحائية الشاملة التي تميزت بها تلك اللوحات فقد تحولت إلى ما ينسبه الأيقونات بالنسبة للسياسيين المعارضين.

عام 2013 فيما كان عائدا من طرطوس إلى دمشق اعتقلته الأجهزة الأمنية

عبدلكي يقدم نفسه، وعبر

ربع قرن من الزمن، كرسام كاريكاتير وكحفار ورسام لوحات جدارية في الوقت ذاته. كانت المسافة بين الممارسات الثلاث دروسه بدقة وإن كان الرسام قد استفاد بقوة من الحفار حتى أخفاه بين لوحاته

لا يحدثك عبدلكي عن الحرفة. بالرغم من أني حاولت ذات مرة أن أثير انتباهه إلى أنه صار يمتحن نفسه ويحملها أكثر مما يجب من خلال تقنية يعتمد من خلالها على خبرات سابقة. يومها لم يخبرني بأني قد أسأت الفهم. لم يشأ أن يفك الاستجابك. لكن علي أن أعترف بأن تمكنه من الحرفة لم يكن يثير لديه أي رغبة في الإشهار. كان كل شيء يجري في سياقه الطبيعي من غير تكلف. كان هناك ما يشغله دائما. سؤال من نوع "ماذا بعد الحرفة؟" فهو ليس من النوع الذي يبحث عن مستويات يتدرج المتلقي من خلالها لفهم لوحته. لوحته صريحة. إنه يرسم حماسة لأنه أحب أن يرسم حماسة. لا تحمل كائناته طاقة رمزية هي ليست من أصلها. هل هو رسام واقعي؟ ذلك سؤال ساذج.

لأنه يفضل أن تعيش الأشياء والكائنات التي يرسمها حريتها في التحول والتلاشي أو حتى الفناء. عمل عبدلكي في السياسة وهو يعرف معنى سوء الفهم. غير أن ذلك لا يعني شيئا مقارنة بحماسة في الجدل السياسي. هو من القلة النادرة التي تعرف متن وكيف تكتب. ولكن المدهش فيه أنه صار يوظف تلك الطاقة في دعم الفنانين السوريين الشباب من خلال تقديمهم بكتابات، قد لا يحصلون عليها من ناقد متمرس. بالرغم من أن عبدلكي لا يجب أن ينظر إليه باعتباره معلما.

لقد حدثني ذات مرة في بيت معلمه إلياس الزيات عن هيبة معلمه الآخر محمود حماد، وكيف كان يراقبه بحذر. لذلك فإنه يخشى أن ينظر إليه الآخرون بالطريقة نفسها. "كائن عيش". يمكنه أن يتجلى من خلال تلك الصفة. الكمال الذي يبدو في لوحاته قد يكون سببا في تعثر خطواته وهو يرى فيه فالأ سببا. ذلك ما يحاول عبدلكي محوه من ذاكرة المحيطين به وجلهم من الشباب. كان يبدو أن يقول لهم "انظروا إلى أخطائي". ولكنه يبحث عن النقص في الكمال الذي يرفضه.

